

النثر الشعري والشعر الموزون

بقلم : محمد عبد الله قولي

كثيرا ما تقع العين في قراطيس اليوم على كلمات صفتت بجانبها نقاط يطيب لقائلها أن يدعوها شعرا ويزينوا لانفسهم بأنه هو الشعر الحديث واعتقد جازما أن كثيرا ممن يكتبون ما يسمى بالنثر الشعري لم تتضح لهم أبعاد العمل الشعري ولا مفهومه الذي يتلخص بأنه الصنعة التي بمقتضاها يتألف الاحساس بقالب من الالفاظ وهو وجداني لا تنطفيء فيه النفس ولم يقفوا كذلك على طبيعة الشعر العربي اذ أنها طبيعة غنائية والشعر العربي انما نشأ نشأة غنائية وظل كذلك في جميع مراحلہ . .

العربي الذي عاش في تلك الصحراء الممتدة الواسعة أراد أن يثير في هذا الجو أنغاما وألحانا تخفف من حدة الهدوء والصمت فكان الحداء فاستجابت له أذنه واستجابت له إبله فغذت السير . وصفاء السماء وهدوء الطبيعة وامتداد الصحراء كلها أدت الى ارهاق النفس العربية والى صقل الاحساس الفني في شتى نواحيه ومن هذه النواحي الأذن فألفت الوزن في الشعر واستعدته . . فوجدنا أن الشعر ينشد بل يغنى فليل أنشدنا فلان وتغنى فلان بأبيات . . وهذه نقطة هامة وخطيرة في البحث وهي أن طبيعة الشعر العربي طبيعة غنائية فيها رنين ومقاطع موسيقية ووزن وقافية وتصريع وترصيع فهذا حسان بن ثابت يترنم بقوله :

تغن بالشعر إما كنت قائله ان الغناء لهذا الشعر مضمار
حتى أن الموسيقى والوزن تطرب لهما الأذن حتى ولو كان المعنى بسيطا
جدا كقول أحدهم :

تصب الخل في الزيت
وديك حسن الصوت

ربابة ربة البيت
لها عشر دجاجات ••

كما تنفر الأذن من شعر رائع المعنى ميت الموسيقى بله الوجدان •
والوزن في الشعر أمر لا يختلف فيه اثنان من العقلاء قديما وحديثا فقد
جاء مثلا في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي عند الحديث
عن قدم النابغة الذبياني على غيره « والمنطق على المتكلم أوسع منه على
الشاعر والمتكلم لا يحتاج الى البناء والعروض والقوافي كما جاء عند أحد
كبار النقاد المحدثين وهو الدكتور محمد مندور في كتابه « فن الشعر » تعريف
للشعر : والشعر لا بد ان يثير فينا احساسات جمالية وانفعالات وجدانية ولتحقيق
هذه الاحداث هناك عدة خصائص لا بد من توافرها فيه كالوجدان في
مضمونه والصور البيانية في تعبيره وموسيقى اللغة في وزنه • حتى أن
(نيقولا فياض) اذ ترجم قصيدة « البحيرة » للشاعر الفرنسي « لامارتين »
ترجمها بروح الشعر العربي الاصيل فجاءت رائعة :

أهكذا أبدا تمضي أمانينا نطوي الحياة وليل الحب يطوينا

وهي أحلى بكثير عندي من ترجمة (الزيات) للقصيدة نفسها ••• النشر
اكثر تعبيراً عن النفس المناسبة دون قيود وليست الأوزان في الشعر هي القيود
فحسب وإنما القافية هي قيد للشاعر المنشد وعدم القيد بها يجعل الانسان حرا
في التعبير عما يريد ولكن هذه الامور بعد التمرس والمران تصبح خصائص
لا قيودا •

ان بين خصائص اللغة العربية وخصائص العرب انفسهم صلة وشيجة
ونسبا والوزن في الشعر العربي انما هو خصيصه للشعر العربي وللغة العربية
وبالتالي هو خصيصه للعرب انفسهم وهذا يعني ان من وقف على شيء من
العربية وفهم اسرارها لا بد أن يعتبر الوزن في شعرها كما اعتبره العرب
انفسهم وليس لانسان ان يضع الشعر العربي في قالب من قوالب الشعر
الانكليزي مثلا أو الفرنسي •

وأما ان كانت بضاعته من العربية على ان اللغة مفردات يمكن له ان يرصفها

الى جانب بعضها كيفما اتفق ثم يزعم انه جاء بشعر • فهذا له شأن آخر انه لا يفهم معنى العمل الشعري كما يجب ان يفهمه العربي او كما فهمه • وربما أخفف عن صاحب النثر الشعري بقولي له : انك ربما تكون قد جئت بشعر • • ولكن معاذ الله ان يكون شعرا عربيا يمثل النفس العربية • • وربما كان شعرك في لغة اخرى لم يتح لنا بعد الوقوف عليها ، لان الشعر ياصحبي صعب قياده : الشعر صعب وطويل سلمه اذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

اعتبر الوزن والقافية في الشعر ضابطا للاحاساس والانفعال كما أن للكلام ضابطا من النحو والضرف واللغة • • فكما أنه لا يمكننا أن نكسر النحو ونخرم الصرف بدعوى التطور كذلك لا يمكننا ان ننسف الوزن والقافية في الشعر العربي بسبب هذه الدعوى ايضا •

والامر في رأيي يحتاج الى ذوق صقلته العربية واحساس هذبته ممارسة لكلام العرب ومعرفة حصلها التعرف على اسراره وخصائصه ، واني أدع لكل ذي فهم في العربية مهما كان بسيطا ان يقرأ قصيدة من شاعر مجيد - طبعاً - مما ينظم اليوم لا في الماضي ثم يقرأ ما شاء من كلمات اصحاب النثر الشعري ثم يحكم بنفسه ويلاحظ الاصاله الفنية المتمثلة في اتناج صاحب الشعر العربي والتي انعدمت او تكاد في كلمات صاحب النثر الشعري •

وما دام الشاعر الاصيل اليوم يصوغ لنا أحاسيسه وينقل لنا تجاربه الوجدانية على طريقة العرب فيؤثر فينا بانفعاله ويهز منا الوجدان فلا حاجة ولا مسوغ ابدأ ليخرج علينا صاحب النثر الشعري بكلماته المتفككة وقد جاء في كتاب « أحسن الحديث » للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي الصفحة الحادية عشرة مايلي : « والدعوة الى الشعر المنشور انما هي في مردها دعوة اجنبية تدعو الى كسر ونبد عمود الشعر العربي كتلك الدعوات التي تدعو الى تبسيط قواعد العربية آناً وتروّج فكرة الجمع بين العربية والعامية أخرى او فكرة استبدال الحرف العربي باللاتيني ثالثة » انتهى •

والتحليل النفسي لاصحاب النثر الشعري أنهم انما يريدون ان يتحللوا من كل القيود • • فكما تحللوا من قيود المجتمع فهم سيتحللون من القيود الادبية في هذا الشعر •

وهيئات أن يجيد انسان الشعر الموزون - باستثناء بعض الاحوال -
ثم يعمد الى النشر الشعري يملأ به أعمدة المجلات وفراغات الصحف واني
لا أتردد في القول انما جنح اصحاب النشر الشعري الى ما جنحوا اليه لانهم لم
يخلقوا ليكونوا شعراء - اذ ان مزاج الشاعر وحسه هما اللذان يمليان عليه
الشعر - ولا يصلحون للشعر بل ربما يصلحون لشيء آخر ولكنهم أبوا الا
ان يوهموا انفسهم بأنهم شعراء أليست الصحف والمجلات تنشر لهم نتاجهم؟!
فهذا في اعتبارهم اكبر دليل على قبول الناس لشعرهم الرائع . ولكن شعرهم
لا يلبث ان يتهافت ويكشف عن هلهلته وتفككه وكثرة ما حواه من الكلمات
العامية .. وكثرة خروجه عن قوانين اللغة وأصولها . فبهذا صار شأن
لشعرهم .. وشأنه كالضد تأتي به لنين ضدا آخر فشعرهم له فضل على
الشعر الموزون كفضل القبيح في بيان جمال الجميل كما قيل : (وبضدها
تتميز الاشياء) .

قد يقولون ان الحياة في تطور ونحن انما يجب ان تطور هذا الشعر .
وأنا لا أنكر حقيقة التطور في الحياة .. ولكن أفهم التطور بأنه الاضافة
الى حسن القديم حسنا جديدا ، لا التنكر للقديم وبذء كلياً . أي أن هذا
لا يعني ان تكسر أوزان الشعر ونبتذ القيم الفنية والمظاهر الجمالية التي صقلتها
الأوزان العربية الصافية على مر العصور الادبية فالوزن والقافية انما هما
منظمان للانفعال الوجداني .. ومهذبان للتألق النفسي والاشراق الروحي .
ولا مانع أبداً من التطور ولكن أين ؟ لا مانع من تطور ينتقي من الالفاظ
اسهلها واعذبها ومن الاوزان ارسقها وانغمها ومن الافكار أوضحها واقربها
ومن تجارب الشعور اصدقها واعمقها الى آخر ما هنالك من مظاهر للتطور تزيد
العمل الشعري بهاء وروعة ولا تنقص منه خصائصه الفنية الواجبة له .
ولا بد من ناحية اذكرها ان ثمة اناسا ينظمون شعرهم على اساس التفعيلة
لا على أساس البحر فهم يأخذون « تفعيلة » بحر الرمل مثلاً « فاعلاتن »
فيضعون شطرا فيه ثلاث تفعيلات ثم شطرا فيه تفعيلتان ثم تفعيلة .. واحيانا
هناك لازمة تتكرر لتشبه القافية - في الشعر الموزون - فهو لاء أقرب بكثير
من اصحاب النشر الشعري الى الشعر العربي الاصيل .